توصيف أسطورة ذبح البقرة الحمراء في الاحتلال الديني للأقصى المبارك

أ. د. سعيد أبو علي
المشرف العام ورئيس تحرير مجلة المقدسية

لم يكن الخامس من حزيران هذا العام (2024)، يومًا جديدًا من أيام التحدي والاستهداف في القدس والمسجد الأقصى المبارك فحسب، وإنما كان يومًا فارقًا بين ما سبق اقترافه وممارسته من اعتداءات وانتهاكات إسرائيلية لإحداث التغيير بالهوية في المدينة ومسجدها، وبين ما سيلحقه من فرض الوقائع القسرية لاستكمال الاحتلال الديني النوعي المضاف الكاشف عن جوهر الاحتلال وطبيعته، ببعده الديني التوراتي.

وتجسد ذلك بمواصلة ممارسة الطقوس التوراتية على طريق تحقيق الهدف الحاسم بتأسيس الهيكل الثالث.. بالصورة المنهجية الرسمية العدوانية التراكمية، التي تجسد الفكر والأساطير والمعتقدات التوراتية والإنجيلية المنبثقة عن تأويل العهد القديم، وفرضها قسريًّا لتحكم الحاضر المعاش وترسم صورة المستقبل، كما يخطط له وينفذ مراحله غلاة المتدينين في الصهيونية الدينية والصهيونية المسيحية. وهما الحركتان المشتركتان في المبادئ والأهداف، اللتان تتصدران المشهد وتصنعان

القرار والحدث، قرار الدولة وسياستها بكل من إسرائيل بقيادة نتنياهو والولايات المتحدة الأمريكية خلال رئاسة ترامب بشأن القدس والأقصى على نحو خاص.

فجاء الخامس من حزيران 2024 يوم مسيرة الأعلام احتفالًا بتوحيد القدس هذا العام، والذي جرى تنظيمه هذه المرة دون قيود ودون مواجهة ودون تبرير إسرائيلي وتحذير دولي، ليؤكد النكبة المستمرة بأبشع صورها الجارية في غزة منذ تسعة أشهر بخلفياتها ومجرياتها وأهدافها التوراتية المستمدة من روح الخطاب الديني الداعي إلى إشعال الحرب الدينية، الحرب المدمرة، التي يتواصل دفع المنطقة إليها بصورة علنية مكثفة منذ تشرين الأول/ أكتوبر الماضي بإجراءات وسياسات إسرائيلية غير مسبوقة فيما يخص المسجد الأقصى.

تهدف السياسات والإجراءات الرسمية المنهجة، كما تعلن الصهيونية الدينية إلى مواصلة واستكمال مراحل السيطرة على الحرم بتكريس التقسيم الزماني ومن ثم المكاني والانتقال إلى السيطرة الدينية اليهودية على الأقصى بتصعيد ممارسة الطقوس التوراتية من ذبح القرابين والتمهيد لبناء الهيكل الموهوم.

ويتطلب ذلك ضرورة أخذه على محمل الجد وعدم الاستخفاف بإمكانية حدوثه على الأقل كرهان أو احتمال قابل للتحقق في ظل ما يجري ويتم تنفيذه بكل المؤشرات الواضحة والمتواصلة والمكثفة في الآونة الأخيرة.

وقد أعلن نتنياهو عن حقيقة موقفه وانحيازه لمعسكر الصهيونية الدينية ومخططاتها بصورة سافرة في رمضان الماضي (1445هـ-2024م) الذي شهد بدوره إجراءات إسرائيلية رسمية وعلنية تكشف زيف الادعاء الإسرائيلي باحترام حرية الأديان، وتَحُول دون وصول المسلمين إلى مسجدهم؛ لتشرع أبوابه أمام جماعات الهيكل بمشاركة الشخصيات الرسمية والحكومية سعيًا لاستباحته وممارسة الطقوس التوراتية بما فيها الاستعداد لقربان البقرة الحمراء.

وعلى الرغم من كل الادعاءات الإسرائيلية المغايرة، فقد كانت التدابير التي

فرضها «بن غفير» على الحرم القدسي وأقرهـــا «نتنياهو» بتزامن الأعياد اليهودية مع أيام الشهر الفضيل، هي التي تدخل حيّز النفاذ والتطبيق بصورة غير معلنة في إطار متابعة تنفيذ ممارسة هذا الطقس التوراتي لتحقيق غاياته.

وإن كانت الصهيونية الدينية هي التي تتصدر مشهد الحدث وتواصل اعتداءاتها وانتهاكاتها على المسجد الأقصى المبارك وممارسة تلك الطقوس التوراتية، ولكنها، في حقيقة الأمر، تعتبر سياســة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، وخاصة الحكومة الحالية في ظل التحــولات العميقة بالفكر والبنية الدســتورية والقانونية لطبيعة النظــام والدولة في إسرائيل، حيث تنتقل بسرعة كبــيرة نحو الدولة الدينية. وفي القلب من هذا الانتقال، تبرز تيارات الصهيونية الدينية وخاصة جماعات الهيكل، التي تمثل طليعتها في تنفيذ مخطط تأسيس الهيكل، عن طريق إعادة تفسير الصهيونيّة من كونها فكرةً قوميّةً لتحقيق وطنٍ قومي لليهود، إلى فكرةٍ قوميّة دينيّة تقيم دولة اليهود انطلاقًا من الرؤى الدينيّة التوراتية، وهو ما يُعيد تفســير القوميّة اليهودية التي كانت قد قوننت الدين على أســسٍ دينية. وهكذا ينتقل الكيان الصهيونيّ من كونه كيانًا سياســيًّا علمانيًّا، كما هي رؤية الصهيونية الأولى الصهيونية المؤسســة، ليصبح كيانًا سياســيًّا يهوديًّا ربانيًّا، تحكمه شريعة الرب ويحقّق إرادته، المتمثلة في بناءِ الهيكل، الذي يطلقون عليه (بيت الرب).

هذا التيار، الذي كان هامشــيًّا خلال نشأة الحركة الصهيونية وتأسيس الكيان الســياسي، بدأ مرحلة التوســع والصعود ليصبح الطليعة الاســتيطانية المقاتلة، والطليعة التي تحاول حســم هويّة القدس دينيًّــا، باعتبار أن الاحتلال الديني في الأقصى يمثل العقدة المركزية لهذا الحسم في استراتيجية تيار الصهيونية الدينية، كما هو في نفس الوقت جوهر برنامج الحكومة الإسرائيلية الحالي، ذلك لأن الصهيونية الدينية وأنصارها يمثلون اليوم عنصر التوازن الأساسي في ائتلاف نتنياهو الحاكم حاليًّا، والطرف الأقدر على فرض سياساته، خصوصًا وأنهم اليوم يسيطرون على (15) مقعدًا وزاريًّا في حكومة نتنياهو المؤلفة من (32) حقيبة.

ولا بــد مــن التنويه إلى أن مقدار مــا يحظى به هذا التيار الخــلاصيّ من دعمٍ حكوميٍّ، مع محاولة نسبة هذا الاحتضان إلى رئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو هي مقاربة ليست دقيقة. فواقع الأمر هو أنّ هذا الصعود مضطرد ومتواصل حتى في ظلّ الحكومات الائتلافية التي شكّلها غانتس مع نتنياهو، أو تلك التي شكّلها يائير لبيد، زعيم المعارضة العلمانيّة الحالي، مــع نفتالي بينيت المنتمي عضويًّا لتيار الصهيونية الدينية.

لقد جرى اســتيراد البقرات الخمس في عهد هذه الحكومــات، إذ تولّى مدير عام وزارة القدس والتراث ومدير عام وزارة الزراعة تقديم مختلف التســهيلات لاستيرادها، وتنظيم حفل استقبال لها في المطار شارك فيه 300 من نشطاء جماعات الهيكل، وتم تقديم مــشروع لمنتزه على جبل الزيتون ليكــون محل إقامة طقوس التطهير بالبقرة الحمراء.

لقد تواصلت الاستعدادات والتحضير لتقديم هذا القربان بخطى حثيثة وعلى المســتوى الحكومي والبرلماني حتى الأيام الأخيرة. ومع اقتراب الذكرى العبرية لاحتلال القدس، عقد الكنيســت الإسرائيلي ظهر يوم الأحد 2/ 6/ 2024 يومًا نقاشــيًّا حول ســبل فرض مشروع الإحلال الديني في المسجد الأقصى والجهود الحثيثة لتحويله إلى هيكل تحت عنوان «عودة إسرائيل إلى جبل الهيكل».

وجاء عقد هذا اليوم النقاشي بدعوة من وزير الأمن القومي الصهيوني المتطرف إيتمار بن غفير، وذلــك بالشراكة مع «اتحاد منظمات الهيكل» التي تدير اقتحامات المســجد الأقصى ومحاولات فرض الطقوس التوراتية فيه بما في ذلك طقس البقرة الحمراء، في الوقت الذي تتســارع فيه خطوات الإعداد لممارسته، وكان هذا اليوم الذي عقد في «قاعة أورشليم» في مبنى الكنيست بإدارة الحاخام المتطرف شمشون إلباو، ومشــاركة حاخامات ورؤســاء وطلاب من المدارس الدينية المتطرفة، إلى جانب أعضاء من كنيســت الاحتلال، مع التنويه إلى أن الذكرى العبرية لاحتلال

القدس هذا العام هي يوم الأربعاء 5/ 6/ 2024، حيث خططت جماعات الهيكل فيه لاقتحام واسع للأقصى صباحًا ولمسيرة الأعلام حول البلدة القديمة مساء.

ولكن السؤال المهم هو: لماذا تعوّل جماعات الهيكل على البقرات الحمراء؟

مع محاولتها تحريض جمهورها على اقتحام المسجد الأقصى المبارك بوصفه الهيكل المزعوم، كانت جماعات الهيكل تدرك أنها تواجه إجماعًا حاخاميًّا يمنع دخول اليهود إليه لسببين: الأوّل أنّ بناء الهيكل ودخوله محكومٌ بمجيء المخلّص، أو بإنزال الهيكل من السماء، وكلاهما فعلٌ إلهيٌّ لا بدّ من انتظاره؛ والثاني هو شرط الطهارة الذي تُجمِعُ المرجعيات الحاخاميّة على عدم توفره في أي يهودي معاصر، وأنّ «دخول الهيكل»، أي اقتحام الأقصى عمليًّا، سيشكّل تدنيسًا يجلب العقوبة الإلهية ما لم يحقق صاحبه شرط الطهارة.

وبما أنَّ الصهيونيّة الدينيّة بطبيعتها تيارٌ خلاصيٌّ، يعتقد أنَّ الفعل البشريّ هو مصدرُ الخلاص، أو أنّه على الأقلّ يشكّل المقدمةَ الضروريةَ حتى يبعث الربُّ المخلّصَ المنتظر، فإنّ الشرط الأول قد جرى تجاوزه عمليًّا؛ وبذلك تبقى العقبة في شرط الطهارة. حيث تتفق المراسيم الدينية القديمة، مع موقف قادة مركز حاراف الديني، وكذلك مع موقف الحاخامية الكبرى، ومع رأي غالبية الحاخامات الحريديم التابعين لتلك الطوائف اليهودية على أن دخول منطقة جبل الهيكل في تلك المرحلة دون التطهر من التعامل مع أجساد الموتى يعدّ انتهاكًا دينيًّا خطيرًا.

يأتي مصدر النجاسة في الشريعة اليهودية من السوائل الخارجة من الجسم أو من الحيض أو النفاس، وهذه يُتطهّر منها بالماء بطقوسٍ متفاوتة. لكن مصدر النجاسة الكبرى في تلك الشريعة هو لمس جسدٍ يهوديٍّ ميت، أو الاجتماع مع جسده الميت تحت نفس السقف في بيت أو مستشفى، أو حتى دخول المقبرة. وهذه النجاسة إذا ما أصابت شخصًا فإنّه ينقلها إلى غيرِهِ من اليهود باللمس، ومن هنا فإنّ هناك إجماعًا بأن هذه النجاسة الكبرى تشمل كلَّ يهود العالم اليوم.

وهذا السبب هو الذي يفسّر رفض الحاخامية الرسمية لاقتحامات الأقصى، ومحدودية أعداد المقتحمين، حتى إن أنصار الصهيونيّة الدينيّة أنفسهم ما زالوا يلتزمون به، فوزير المالية بتسلئيل سموتريتش لم يقتحم الأقصى أبدًا لهذا السبب، رغم أنه يشكّل الرأس السياسي لهذا التيار بمكوناته المختلفة.

تعوّل جماعات الهيكل بأن إجراء هذا الطقس المعقّد سيكسر عزلتها، وسيجعل جمهورها الأقرب من أتباع الصهيونيّة الدينيّة يستجيب لخطابها ويشارك بفعالية في اقتحامات المسجد الأقصى، وفي خططها المرحلية المتمثلة بالتقسيم الزمانيّ والتقسيم المكانيّ والتأسيس المعنويّ للهيكل بفرض الطقوس التوراتية فيه، فتنتقل بذلك أعداد المقتحمين اليوميّة، وتتضاعف إلى عشرات وربما مئات الآلاف في الأعياد الكبرى. وهكذا، فإن الأسطورة تذهب إلى أن ذبح بقرة حمراء والتطهّر بها يعني زيادة عدد المقتحمين للأقصى، ولكن لا يعني بالضرورة «بناء الهيكل».

وللتوضيح أكثر، فإنّه إذا ما تحقّق طقس التطهير بالبقرة الحمراء فإنّ هذا يعني تحريك جمهور الصهيونيّة الدينيّة الأقرب ليصبح فاعلًا في اقتحامات المسجد الأقصى وفي مخطط بناء الهيكل، فهو جمهور معبّأ تجاه هذا المشروع، ومؤمن بأن الجهد البشريّ لتأسيس الهيكل هو المقدمة لجلب التدخل الإلهي الذي يقلب الموازين ويخرج الكيان الصهيوني من كل أزماته.

إلى جانب ذلك، فإن الخطورة المباشرة لتطبيق هذا الطقس التوراتي من خلال هذه الأرقام الكبيرة لأعداد المقتحمين وأهدافهم المحددة بممارسة تلك الطقوس وتقديم القرابين، وإذا ما تحقّقت عمليًّا فهي كفيلة بنقل المسجد الأقصى من خانة المقدّس الإسلامي الخالص إلى خانة المقدّس المشترك عمليًّا بين المسلمين واليهود.

بكلمات أخرى، فإنّ تحقيق طقس البقرة الحمراء سيفتح الباب ويمهّد طريق بناء الهيكل وفق المخطط المدروس، الذي ينقل المسجد الأقصى من مراحل التقسيم الزماني إلى التقسيم المكاني ثُم إلى المقدس المشترك والاحتلال الديني المؤدي إلى

التأسيس المعنوي للهيكل، وصولًا إلى هدم الأقصى وبناء الهيكل الثالث.

وتقدر الإحصاءات الرسمية الإسرائيلية نسبة جمهور الصهيونية الدينية اليوم بنحـــو 16 % من المجتمع اليهودي في الكيان الصهيـــوني، أي إن عددهم يقارب (1 , 1) مليون شخص، وإذا ما أخذنا نســـبة الإنجاب العالية في هذا القطاع فإن عدد البالغين فيه رجالًا ونســـاءً يقدر بنحو (400) ألـــف، ويمكن القول إن هذا هو الجمهور المرشـــح للتأثر بخطاب جماعات الهيكل في حال تنفيذ طقس البقرة الحمراء، مع إمكانية انضمام قطاعات أخرى له من المتدنيين التقليديين (الحريديم) والقوميين الأصوليين.

لا يوجـــد إحصاء دقيق لعدد جمهور جماعات الهيكل النشـــط في الاقتحامات حاليًّا، فالمتعاطفون معها أكثر من المشـــاركين في أنشطتها بكثير، لكن تحليل أعداد المقتحمين اليومية بمتوســـطها البالغ (200) مقتحم، والأرقام الســـنوية البالغة (4000) مقتحـــم عام 2022، فإن التقدير المنطقي لعدد الجمهور هو ما بين (10–15) ألفًا، يقتحم كل منهم المسجد الأقصى ما بين أربع إلى خمس مرات سنويًّا.

إذا ما نجحـــت جماعات الهيكل في تحريك (10–15 %) من جمهور الصهيونية الدينية للمشـــاركة الفعالة في اقتحامات المســـجد الأقصى، فإن الجمهور النشط لجماعات الهيكل مرشّحٌ لأن يصبح ما بين (40–60) ألفًا، وهو ما يمكن أن يجعل أعداد المقتحمين اليومية تتضاعف أربع مرات في المتوسط.

وبالعـــودة إلى موضوع الطهـــارة كشرط لتحريك جمهـــور الصهيونية الدينية لاقتحام الأقصى، فإن الطهارة المقصودة هي فعل ماديّ يتم تحقيقه بواسطة إجراء الطقس التوراتي بشروطه وتفاصيله بتطبيق حرفي، وهي بالتالي طقس ديني، يؤمن اليهود بوجوبه للتطهر من نجاســـات الموتى، التي لا تزول عندهم ســـوى برشّ المتنجس بالمـــاء المخلوط برماد «بقرة حمراء» خالـــصٌ لونها، لا يعتريها عيب، ولم تُسخّر للخدمة أو الحمل على ظهرها قط. وتُعد هذه الشعيرة من الممارسات الدينية

التـــي يتعذر إنجازها، ويصعب توفر شروطها، لذلك لم يتمكن اليهود من تأديتها على مدى تاريخهم الطويل، ســـوى تسع مرات، كان آخرها منذ ما يقارب 2000 عام.

ووفق أسطورة البقرة الحمراء، يمثّل ظهور «البقرة الحمراء الحالية، التي تكون العـــاشرة وفق ادّعائهم» أهميـــة كبرى لدى اليهود، إذ يعتقدون أنها «إشـــارة من الرب» للسماح لهم بالصعود إلى «جبل الهيكل»، أي دخول المسجد الأقصى، الذي حُرِّم عليهم بســـبب الدنس، ومن ثم هدمه لبناء «الهيـــكل الثالث» على أنقاضه، ويعتقدون أن ذلك مقدمة لظهور «المســـيح المخلص»، وتَحقُّق الخلاص للشعب اليهودي.

لقد بدأ الاستعداد الكامل لظهور البقرة الحمراء، من خلال تكريس بعض أبناء الكهنة من الأسر اليهودية بعد ولادتهم مبـــاشرة، وإعدادهم (العزلة والطهارة) للتعامل مع البقرة بعد ظهورها. وهي مرحلة أولى على طريق الطهارة من نجاسة الموتـــى المؤدية إلى إعادة بناء الهيكل الثالث، المؤدي بدوره لظهور المســـيح المنتظر اليهودي، حيث إن ســـكان إحدى المســـتوطنات الدينية الواقعة شرقي القدس، قاموا بتأسيس قرية أطفال كهنة لينشؤوا على الطهارة منذ ميلادهم، وذلك بعزلهم داخـــل القرية، لكي يقوم هؤلاء الأطفال الكهنة مســـتقبلًا بإعداد البقرة الحمراء للذبح والحرق واستخدام رمادها للتطهير من نجاسة الموتى، ولن يسمح للأطفال بمغادرة هذا المكان حتى ســـنِّ الثالثة عشرة على الأقل، أو ربما عند اكتشـــاف أو ظهور بقرة حمراء جديدة.

وفي عـــام 2022، حصل الكهنـــة في دولة الاحتلال على خمـــسٍ من البقرات الحمـــراء، أُعلن أنها تتمتع بالشروط التي تؤهلها لطقوس «البقرة العاشرة»، ومع دخـــول البقرات عامها الثالث، مطلع ســـنة 2024، بـــاشرت المنظمات اليهودية بالتعاون مع السلطات الإسرائيلية الاســـتعدادات للطقوس، التي يجب تنفيذها

–حسب المعتقدات اليهودية– في اليوم الثاني من شهر نيسان وفق التقويم العبري، والذي وافق 10 أبريل/ نيسان من هذا العام (2024). غير أن التنفيذ لم يتم في حينه، نظرًا لأن الحكومة الإسرائيلية رأت أن الظروف الإقليمية والدولية ليست مواتية له بعد.

وتتلخص فكرة ذلك المعتقد في أن على اليهود فرض التطهر برماد بقرة حمراء خالصٌ لونها، من نجاسات الموتى، التي لها أشكال، كما ذُكر آنفًا، منها: ملامسة جسد الميت، أو الوُجود معه في مكان واحد، أو المرور بجنازة، أو مسّ أحد القبور، أو السير فوقه، أو لمس عظم ميت، على أن تتوفر مجموعة من الشروط في هذه البقرة، لتصبح صالحة للذبح والتَّطهر بها، فإذا انتفى أحدها، تصبح البقرة غير صالحة لهذه الطقوس، وهذه الشروط هي:

- أن يكون شعرها أحمر خالصًا، لا يشوبه أي لون آخر حتى لو كان شعرتين، فإن داخل لونها شعرتين من لون آخر، أصبحت غير صالحة للتَّطهر.
- أن تكون قرونها وحوافرها ورموشها حمراء.
- لم تسخر لأي نوع من العمل، ولم يوضع في رقبتها حبل، ولم يمتطِ ظهرها أو يتكئ عليها أحد، ولم تحمل على ظهرها وزنًا، ولم يصعد على ظهرها حيوان ذكر، وتستثنى من ذلك الطيور.
- أن تكون خالية من العيوب والأمراض والتشوهات.
- أن تُربى في «أرض إسرائيل».
- ألا تكون خضعت للتزاوج قط.
- أن تكون قد دخلت عامها الثالث عند الذبح، وذلك حسب الرأي الأكثر اتّباعًا.

وبالنظر إلى متوسط عمر تلك البقرات، فإن أولاها مرشحة لدخول عمر

الذبح شـــهر أكتوبر/ تشرين الأول 2023 في حـــال مطابقتها للشروط التوراتية، وآخرهـــا كفيل بتحضير ما يكفي لتطهير كل يهود الكيـــان الصهيوني معنويًّا لأن كمية الرماد المطلوبة لهذا الطقس صغيرة جدًا.

وتوفر هذه الشروط ليس أمرًا هيّنًا، فلطالما كلّف الحصول على البقرة الحمراء اليهود أموالًا طائلة، وحسب معتقدهم، فإن بقرة واحدة كما أشرنا تكفي لتطهير الشـــعب اليهودي كله، ويمكن كذلـــك الاحتفاظ برمادها لغـــرض التطهر به لسنوات طويلة.

وأمام توفر كامل الشروط لتطبيق هذا الطقس، بما في ذلك اســـتحداث طبقة الكهنـــة وتدريبهم وتوفير قطعة أرض على جبل الزيتـــون، حيث يُفترض أن يتم الذبح وفق الشروط التلمودية وانتظار الموعد المناســـب فقط، فقد جرى البحث في التاريخ المحـــدد تلموديًّا لهذا الذبح، ليتضح أنه في الثاني من نيســـان العبري، حيث تقول المشناه بأن الذبح قد جرى ما بين 7– 9 مرات في تاريخ اليهود القديم وأن الذبح الأول على يد النبي موسى –عليه السلام– قد كان في اليوم التالي لبناء «خيمة الاجتماع»، أي في الثاني من نيسان العبري، وإذا ما عدنا إلى النظير الميلادي لهـــذا التاريخ في العام الحالي فإنـــه يوافق يـــوم 10/ 4/ 2024، أي في اليوم الذي سيصادف في الغالب يوم عيد الفطر.

لقـــد ارتفعت عقيرة منظمات جبل الهيكل للدعـــوة لذبحها في جبل الزيتون، وعقد مؤتمر في مستعمرة شـــيلو القريبة من نابلس يوم 27 آذار من هذا العام، تمّ خلاله مناقشـــة التحضيرات لذبح البقرات تمهيدًا للتطهّر، وحُدِّد يوم 2 نيســـان العبري الموافق 10 نيســـان الميلادي موعدًا لذلك، وهو ما تصادف مع حلول عيد الفطر السعيد. وإذ لم تُعطِ الشرطة الإسرائيلية موافقتها على الأمر نظرًا لما قد يثيره من تأجيج للصراع في ظل الحـــرب على غزة، فقد تمّ تأجيل تنفيذ الذبح والتطهر إلى أعياد لاحقة، وبانتظار أن تنضج الظروف لتحقيق ذلك.

1. طقوس أسطورة ذبح البقرة الحمراء

يقوم الطقس على ذبح بقرة حمراء وحرقها، ويضاف أثناء الحرق خشب الأرز ونبات الزوفا وصوف مصبـــوغ باللون القرمزي الداكن، ثم يُجمع الرماد ويُدق، ويُوضع في إناء فيه ماء نقي، ويرش به الشـــخص المراد إزالة نجاســـته، في عملية تستمر ســـبعة أيام، حتى تزول عنه النجاسة، ويرش الإنســـان المتنجس بالماء في اليوم الثالث، ولا يصبح التَّطهر مقبولًا حتى يرش في اليوم السابع. ويُشرف على الطقس نائب رئيس الكهنة تحديدًا.

وينـــدرج البحث عن البقرة الحمراء، في سلســـلة الأســـاطير الدينية المتكررة المرتبطـــة بالديانـــة اليهودية، فكلما حلّـــت باليهود، عبر تاريخهـــم الطويل، أزمة من الأزمات- كما حدث أثناء الســـبي البابلي وفترات الشـــتات والاضطهاد، إلا واســـتنجدوا بمخلّص يُخلّصهم من ذلك. لكن الحقيقـــة هي أن المتطرفين اليهود يوظفون أسطورة البقرة الحمراء والهيكل وغيرهما من الأساطير الدينية التلمودية، لإثارة الشعور والحماس الديني لخدمة هدف أسمى، وهو تهويد القدس الشريف وهدم المسجد الأقصى المبارك وإتمام عمليات الاستيطان. ولتحقيق هذه الأهداف تأسســـت جماعات وأحزاب دينية، تؤمن بتحقيق الأساطير التلمودية على أرض الواقع.

وأمام غرابة هذا الطقس التوراتي بكل عناصره يتبادر السؤال عن تفسير عقلي لهذه الأسطورة، وفي هذا يقول الحاخام بار إيلان (رئيس حركة همزراحي، وعلى اسمه تمّت تسمية جامعة بار إيلان الحالية) بأن طقس التضحية بالبقرة الحمراء هو الأصعب تفســـيرًا بين الأوامر الكتابية، مشيرًا إلى أنه إما شكل من أشكال السحر المرتبطة بالعقيدة اليهودية السرية القبالة، الصوفية في ماهيتها أو أن الربَّ اختصّ موسى وحده بمعرفة الحكمة من ورائه.

ولا يقبل اليهود الأرثوذكس أي تفسيرات لذلك الطقس، حيث يعتبرون ذلك

انتهاكًا لعقيدة دينية وإنــكارًا ضمنيًّا لتقليد يهودي مهم من هذا المنطلق، عجزت الدراسات المعاصرة عن فهم ذلك التقليد الديني اليهودي، خاصة مع عدم توافر نظرية علمية مناسبة للبحث لغياب المنهجية الدينية المقارنة.

يؤكد بار إيلان أن فهم أحد الطقوس يســتلزم الكشف عن البعد الأسطوري المرتبط به، معتبرًا أن ذلك البعد في طقس التضحية بالبقرة الحمراء يتعلق بالطهارة في مقابل النجاسة. وهنا لا بد من لفت الانتباه والتذكير بمسألتين:

الأولى: إن تقديــس البقر والعجول كان شــائعًا في الديانات الوثنية القديمة، حيث كانت تتخذ بمثابة رمز للربّ، وقد قدّس بنو إسرائيل العجل بزعم أنه إلههم الذي أخرجهم من مصر وأنقذهم من اضطهاد الفراعنة في زمن موسى وهارون، كما ورد في القرآن الكريم.

والثانية: إنه وبعد انتصار قوات الاحتلال في حرب الأيام الستة بدأت مرحلة جديدة بخصوص جبل الهيكل، تتلخــص في تطورين مهمّين: **الأول** هو المطالبة بالســماح لليهود بالصلاة في تلك المنطقة، وتحويلها إلى مركز للأمة اليهودية، مع السعي لتدمير المســجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث مكانه. أما **الثاني**، فكان إشاعة التعليم الديني والعمل على تغيير موقف الصهيونية الدينية من بناء الهيكل.

في الحقيقة ورغم كل ما يحيط بهذا الأمر من غموض يصنعه في إطار الأسطورة، فإنه لا ينبغي التقليل من أهمية الموضوع وجدية الصهيونية الدينية في اســتهدافها للأقصى ومواصلة تنفيذ مخططاتها لتأســيس هيكلها ولا ينبغي التقليل من مدى تبنــي حكومات اليمــين الإسرائيلي لهــذا المخطط بكل ما يحمله مــن تداعيات وعواقب ولا من حقيقة التحالف والعمل المشترك بين الصهيونية الدينية اليهودية والصهيونية المســيحية الإنجيليكانية لتحقيق الهدف الخلاصي المشترك الموهوم، ولو بتفســير مختلف لأســاطير العهد القديم والدفع باتجاه تفجير الحرب الدينية

ارتباطًا بالعقيدة الخلاصية لكليهما.

وفي هذا السياق، نشير أولًا إلى اعتبار طقوس التطهر برماد البقرة الحمراء، من الفرائض الدينية التي يحتفي بها اليهود، والتي يولونها أهمية بالغة، وكذلك تُعد من المعتقدات الدينية التي يعتنقها البروتستانت والمسيحية الأصولية التي تستند إلى تعاليم «العهد القديم»، وتؤمن بعودة المسيح إلى الأرض.

إن ما يعرف بالمسيحية المتصهينة ليس بالفكر الجديد، أو الطارئ على الثقافة والمعتقد المسيحي عامة والغربي منه خاصة؛ بل له جذور ربما تعود إلى البدايات المسيحية الأولى التي كان لشاؤول اليهودي، الذي أصبح يُعرف بالقديس بولس، دور بارز فيها، وقد تطورت حتى وصلت إلى عقيدة متكاملة تتبناها الفرقة التي تمسك بزمام السلطة في الغرب والولايات المتحدة وتحاول انطلاقًا منها السيطرة على العالم وتسييره لخدمة رؤاها العقدية.

وتُعرف المسيحية المتصهينة بأنها تيار واسع من الطوائف المسيحية التي تدعم الصهيونية، ثم أخذ هذا المصطلح بعدًا دينيًّا، فأصبح المسيحي الصهيوني هو المهتم بتحقيق نبوءات الكتاب المقدس من خلال الوجود العضوي والسياسي لإسرائيل، بدلًا من تحقيق البرنامج الإنجيلي من خلال المسيح والكنيسة.

وبسبب تحمس الاتجاه الإنجليكاني للأمر، فقد تصدّت له القيادات الدينية المسيحية الفلسطينية، مؤكدة أنّ قضية ذبح البقرات الحمراء ناتج عن تفسير مشوّه للعهد للقديم.

يؤكد موردخاي انباري، الباحث في الدراسات اليهودَّية، أن جهود بناء الهيكل الثالث تستنهض جهودًا مشتركة تبذلها المنظمات الصهيونَّية اليهوديَّة والمسيحَّية معًا. كما هو ثابت، فاليهود يدَّعون أن المسجد الأقصى المبارك بُني على أنقاض هيكلي أورشليم؛ ولذلك يصرُّون على هدم المسجد، لبناء هيكلهم الثالث على

أنقاضه، وتحديدًا في موضع مصلى قبَّة الصخرة، والتي يعتقدون أنّها أصل الخَلْق.

كما أن الحاخام إسحاق مامو، المشرف على مشروع استجلاب وتربية البقرات الخمس حلَّ كـَ«ضيف شرف» على «التجمّع الوطني للصلاة والتوبة» الذي عقدته الجماعات الإنجيلية في «متحف الإنجيل» في واشنطن العاصمة في 31/ 1/ 2024 برعاية ومشـــاركة رئيس مجلس النواب الأمريكي مايك جونســـون، حيث مُنح فرصة الحديث لأكثر من نصف ساعة عن تحضيرات ذبح البقرة الحمراء وتأسيس الهيكل، وسط تصفيق الحضور ودعمهم، وكان من بينهم عدد من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ الأمريكيين. كما وتؤمن الصهيونية الدينية، أن هذا التطهّر كفيل بجعل اليهود الحريديم يتجاوزون منع الحاخامية اليهودية اليهود من «الصعود إلى جبل الهيكل» بسبب نجاستهم، مما سيؤدي إلى «صعود» مئات الآلاف من اليهود إلى المكان لتسريع عملية هدم المسجد الأقصى المبارك وبناء الهيكل مكانه. لذا، فإن الاتجاه الإنجليكاني هو الأكثر تحمّسًا لإتمام هذه العملية، لأنها ستسرع الخطوات نحو حرب مجدو (هار مجدون) التي ســيؤذن حدوثها بهبوط الســيد المسيح من السماء وحلول ألف عام من السلام في الأرض بعد هذا الهبوط.

وهنا، يتضح من المخطط اليهودي للاســتيلاء على المســجد الأقصى المبارك، بموجب وثيقة خطة ترامب للسلام، أن الوسيلة لذلك ستكون بإتاحة الصلاة في منطقة هضبة موريا للمنتمين إلى كل ما يُطلق عليه الديانات الإبراهيمية، بتحويل المســجد الأقصى إلى مقدس مشترك، واســتغلالًا لذلك النصّ يجد اليهود ذريعة وجــود شرعية لأدائهم الطقوس الدينية في موقع المســجد الأقصى. أما عن دافع إدارة ترامب التي انتمى غالبية رموزها إلى تيار المحافظين الجدد اليميني المتطرف، فهو التعجيل بأحداث آخر الزمان، على اعتبار أن بناء الهيكل الثالث ســيفضي إلى اندلاع معركة (هار مجدون) المقدسة عند اليهود.

وهكذا، يبدو أن الإعلان عن خطة ترامب للسلام كان بمثابة خطوة فعالة في

مسار بناء الهيكل، بدفع من عقائد البروتستانتية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية، وخاصة عقيدة ما قبل الألفية التدبيرية.

وتتعلق عقيدة مـــا قبل الألفية التدبيرية بأحداث الفترة الســـابقة على المجيء الثاني للمسيح التي ستشهد أحداثًا فارقة ستُمهّد لمجيئه، على رأسها وقوع الضيق العظيم أو المحنة الكبرى، وســـيفضي ذلك إلى اندلاع معركة (هار مجدون)، التي ســـيظهر في نهايتها المســـيح لقهر أعداء أتباعه وتأســـيس مملكته العالمية. من هنا فإن تأســـيس دولة الاحتلال الإسرائيلي، بدعم من أقطاب الصهيونية المســـيحية في بريطانيا وتنامي نفوذها وتوســـعها بمســـاندة معتنقي العقيدة ذاتها من ساسة الولايات المتحدة، يمثّل علامة حاسمة من علامات آخر الزمان المؤدية إلى مجيء المسيح. ويعدّ بناء الهيكل من أهم خطوات التمهيد لذلك، ومنذ احتلال القدس الشرقية عام 1967م تعمل الطائفة الإنجيلية على إحياء النبوءات الكتابية عن آخر الزمان، التي يعدّ تأسيس الهيكل نقطة انطلاقها.

ولعلّ في ذلك ما يفسّر محاولة الإنجيلي الأسترالي المتطرف مايكل دينس روهان حرقَ المسجد الأقصى عام 1969، حيث أراد إخلاء منطقة هضبة موريا لتأسيس الهيكل.

وفي هذه الفترة، وفي ظل حرب التدمير والمجازر الرهيبة التي تتعرض لها غزة، فـــإن هذه الحرب تتزامن مـــع النبوءات التي لدى اليهـــود، بأنها في فترة زوالها في ظل مخـــاوف يهودية وأوروبية وأمريكية كبيرة جدًا مـــن أن تكون هذه الحرب أو هذه الفترة هي نهاية إسرائيل. ولذلك فعلى غير سابق عادة، احتشدت الأساطيل الأمريكية والأوروبية في المنطقة للتدخل في المعركة في الساعة اللازمة. كما يتكثف الخطاب الديني التوراتي والمغذي لهذه الحرب.

ومـــن هذا المنطلق، يراها نتنياهو أنها حرب بين أبنـــاء النور وأبناء الظلام، في إشـــارة إلى إحدى مخطوطات البحر الميت، تتحدث عن معركة حاسمة بين اليهود

والأمميّين ترقى إلى أن تُوصف بأنها حرب إبـــادة عالمية، يفترض أنها معركة «هار مجـــدون»، نتنياهو وجّه كلامه للإسرائيليين قائلًا: «ســـنحقق نبوءة إشـــعياء، لن تسمع بعد، خرابًا في أرضك؛ سنمنح المجد لشعبك؛ سنقاتل معًا وسننتصر نحن أبناء النور وهم أبناء الظلام وسيهزم النور الظلام».

لا يمكن إغفال علاقة الاســـتهداف للمسجد الأقصى بحرب الإبادة الجارية في قطـــاع غزة، من زاوية أن جماعات الهيـــكل اليهودية والمهيمنة على قرار الحرب هي التي تقودها وتدير شـــؤونها وتملي اســـتمرارها لتحقيق أهدافها، ولا شك في أن نتنياهو رئيس الحكومة يخضع بصورة تامة وينصاع لإرادة وبرنامج الصهيونية الدينيـــة، وبالتالي جماعة الهيكل التي ترى أن ذروة انتصارها في حربها الهمجية على قطاع غزة هو ســـيطرتها على المســـجد الأقصى لتحقيق هدفها المستمد من أصولها الأيديولوجية، خاصة بعد توافر شروطها لتحقيق الســـيطرة التوراتية. كما تؤمن هذه الجماعة بوجود البقرة الحمراء المستوفية لمواصفات هذا الطقس التوراتي.

إن العديـــد من المؤشرات المرئية في حرب التدمـــير الفظيعة الجارية ضد قطاع غزة، تؤكد البعد الديني البارز في هذه الحرب، لجهة إطلاق يد جنود الاحتلال من تيار الصهيونية الدينية الاستعراض خلال حربهم الدينية على الشعب الفلسطيني مصطحبين معهم رايات الهيكل المزعوم على دباباتهم، وليرســـموا الهيكل المزعوم على جدران مباني غزة قبل تدميرها، وليرســـلوا رسائل دمارٍ وتأسيس الهيكل في مكانه.

2. في خطاب متلفز يوم 25 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، اســـتحضر نتنياهو «نبوءة إشعياء» في إطار سعيه لمواصلة حرب الإبادة على قطاع غزة، وقال: «نحن أبناء النـــور بينما هم أبناء الظلام، وســـينتصر النور على الظلام». كما اســـتحضر نتنياهو نصًّا دينيًّا آخر، حين قال: «يجب أن تتذكروا ما فعله عماليق بكم، كما يقول لنا كتابنا المقـــدس. ونحن نتذكر ذلك بالفعل، ونحن نقاتل بجنودنا الشـــجعان

وفرقنا الذين يقاتلون الآن في غزة وحولها وفي جميع المناطق الأخرى في إسرائيل».

3. وتحيل كلمة «العماليق» إلى قبيلة من البدو الرحل سكنوا شبه جزيرة سيناء وجنوبي فلسطين، وصارت تعني في الثقافة اليهودية «ذروة الشرّ الجسدي والروحي». ويجد ذلك من يقرأ في سفر صموئيل الأول «اذهب وحارب عماليق، اقضِ عليهم قضاءً تامًّا، هم وكل ما لهم. لا تشفق عليهم، اقتل جميع الرِجال والنساء والأطفال والرضّع، واقتل ثيرانهم وغنمهم وجمالهم وحميرهم، وحاربهم حتى يَفنوا».

وتحدث الحاخام اليهودي الأمريكي مانيس فريدمان صراحة عن أن الطريقة الوحيدة لخوض حرب أخلاقية هي الطريقة اليهودية، إذ يقول: «دمِّر أماكنهم المقدسة، واقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم». وأوضح أن تلك هي قيم التوراة التي ستجعل الإسرائيليين «النور الذي يشع للأمم التي تعاني الهزيمة بسبب الأخلاقيات المدمرة التي اخترعها الإنسان»، ويؤكد أنها الطريقة التي تشكل «الرادع الوحيد والحقيقي للتخلص من ثبات الفلسطينيين ومقاومتهم المستمرة».

أما الحاخام إلياهو مالي فيقول: «الوضع الحالي إما نحن وإما هم عندما نحارب حربًا دينية، في هذه الحالة في غزة فإن الحكم الشرعي، لا تترك هناك شخصًا حيًّا والمنطق هنا واضح جدًّا، إذا لم تقتلهم فسوف يقتلونك. «مخرّبو» اليوم هم أطفال الماضي الذين تركناهم أحياء والنساء هن اللاتي يلدن «المخربين»، الوضع إما نحن أو هم».

وعلى ضوء ما تقدم، فإن العقل كما الحكمة تقتضي أن يؤخذ تهديد طقس البقرة الحمراء على محمل الجد بما يقتضيه كرهان وهدف ناتج عن تفسير مشوّه للعهد القديم، يواصل تحالف الصهيونية الدينية والأصولية المسيحية العمل على تحقيقه. كما يقتضي الموقف برمّته أن يواصل الفلسطيني ثباته ومقاومته وتصدّيه والدفاع

عن حقِّه الوطني، وعن وجوده وأرضه ومقدّساته وحريته واستقلاله وتطلعاته، كما فعل في الهبّات الشـــعبية الســـنوية من أجل القدس والأقصى منذ عام 2014 وحتى اليوم، وذلك لتحقيق السلام بذات القيم الإنسانية النبيلة، التي هي مصدر طاقته وقوة بقائه وصموده وبالتأكيد انتصـــاره، فتلك المبادئ والقيم هي مصدر تفوقه لتحقيق حريته وانتصاره.